

حضور النّسق الديني في الرواية الجزائرية المعاصرة

قراءة في المنجز الروائي لإسماعيل يبرير

The presence of the religious pattern in contemporary Algerian literature a reading of the novelist work of Ismail Yabrir

اسماعيل عسوس

تاريخ النشر : 2024/04/27	تاريخ القبول : 2024/02/23	تاريخ الإرسال : 2023/12/31
--------------------------	---------------------------	----------------------------

الملخص:

يقدم النصّ الأدبي في مضمرة مجموعة أنساق تنسخ القيم وتنقض ثقافة الفرد، وهذا معناه أن في الثقافة عللا نسقية لم تكتشف بعد، ومدخلتنا هذه تنغيّ الكشف عن النّسق الثقافي الديني في النصّ الأدب الجزائري، والذي شكّل حضورا بمختلف دلالاته ورموزه في المنجز الروائي لإسماعيل يبرير، من خلال مجموعة رواياته "وصية المعتوه... كتاب الموتى ضد الأحياء، مولى الحيرة" و"منبوذو العصافير".

الكلمات المفتاحية: النّسق، النسق الديني، الرواية الجزائرية، إسماعيل يبرير.

Abstract:

The literary text presents within its content a set of patterns that abrogate values and undermine the culture of the individual. This means that there are hidden patterns in culture that have not yet been discovered, and our intervention seeks to reveal the cultural-religious pattern in the Algerian literary text, which formed a presence with its various connotations and symbols in the fictional work of Ismail Yabrir , from his collection of novels, "The Will of the Idiot... The Book of the Dead Against the Living," "Mawla Al-Hira" and "The Outcasts of the Birds."

Key words The pattern, the religious pattern, the Algerian novel, Ismail Yabrir.

*** **

المؤلف المرسل : es.assous@univ-blida2.dz

1_مقدّمة

إنّ الدّين هو أهمّ ركيزة مشكّلة لشخص الإنسان في المجتمع، فهو يفرض وجوده عليه، وهو أيضا خاصية ونسق يجمع صنوف العبادات التي تحظى بالقدسية، والتي تعتبر محرّكا وموجّها لسلوكيات المجتمع وضابطا محكما له، ومع ترسخها وتكرارها تتحوّل إلى أنساق، تتعرّز داخل الثقافة نفسها، فتتضمنها النصوص الإبداعية.

تتمثّل أهميّة النّسق الثقافي في تحديد رؤية الأفراد لما حولهم ويتحكّم في سلوكياتهم ويضبطها، فيظهر أحيانا هذا النّسق خلف الخطابات النّصوص الإبداعية ويتوارى خلفها أحيانا، وبهذا يكون الخطاب أو النّص الإبداعي متشبّعا بهذه الأنساق المضمرة، التي تنتج دون وعي من منتجها، وهنا تأتي مهمة النّقد الثقافي، وهو الذي يتعامل مع النصوص والخطابات الإبداعية ويتغيّا كشف ما تؤدّيه الأنساق الثقافية المضمرة من وظائف نسقية.

إنّ الرواية هي حقل خصب يبحث فيه النّاقّد عن الأنساق الثقافية، والتي دائما ما تستتر في تضاعفها مجموعة تجاذبات: دينية، عرقية، مذهبية، إيديولوجية... الخ، وهذا ما ينسحب على الرواية الجزائرية المعاصرة، هذه الأخيرة، التي تميّزت بتفاعلها مع الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وتستجيب لمقتضياتها، وهذا السبب دفعنا إلى البحث عمّا تخبئه الرواية الجزائرية المعاصرة، من نسق ديني كامن متوارٍ خلف البعد الجمالي للغة، وقد وقع اختيارنا على المنجز الروائي الخاص بالكاتب الجزائري "إسماعيل يرير"، وهي روايات "منبوذو العصافير"، "مولى الحيرة" و"وصية المعتوه... كتاب الموتى ضد الأحياء، والتي جعلها كاتبها مجمّلة برموز ومدلولات النّسق الدّيني.

2_النسق الثقافي:

شكّل مفهوم النسق محورا رئيسا في مشروع النّقد الثقافي، وهو نسق من العلاقات الباطنة بين العناصر التي يتم إدراكها من خلال تفاعل وترابط وانتظام هذه الوحدات المشكّلة للدّلالة، هذه الدلالة محملة بشحنة ثقافية تشمل النّمط المعيشي لمجتمع معين من عادات وتقاليده وقيم وأخلاق ومعتقدات وقانون، وكل ما تشتمل عليه الثقافة يشكّل أنساقا ثقافية متنوعة ومتعارضة ومتناقضة فهذا العالم يجسّد بناء ثقافيا جدليا معقدا يتموقع وفق تشكيل خيالي جديد في بنية اللغة على هيئة أنساق مولّدة للدّلالة، هذه الأخيرة يسعى النّقد الثقافي إلى استكناه مكانها وسر أغوارها وكشف خباياها انطلاقا من اللغة خاصة، بكشف الصراعات والتناقضات المضمرة داخل تلك الأنساق مظهرا عيوبها وخطورتها على وعي القارئ" فهذه الأنساق الثقافية هي أنساق تاريخية أزلية وراسخة ولها الغلبة دائما، وعلامتها اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق، وكلما رأينا منتوجا نصيا أو ثقافيا يحظى بقبول جماهيري عريض وسريع فنحن في لحظة من لحظات الفعل النسقي المضمّر الذي لا بد من كشفه...وقد يكون ذلك النسق الثقافي في الأغاني أو في الأزياء أو الحكايات أو الأمثال مثلما هو في الأشعار والإشاعات والنكت...

وكل هذه الوسائل حيل بلاغية جمالية ينطوي تحتها نسق ثاو في المضمّر، فالأغاني والأزياء، الحكايات الدين كلها عناصر للثقافة التي هي النمط أو الطريقة التي يعيشها مجتمع معين سواء أكان المجتمع متقدما أم

متخلفا، تضمّر أنساقا متنوعة متضادة مشكلة نظاما متواصلا ومتوارثا من جيل إلى آخر عن طريق التقليد والممارسة بشكل شعوري أو لا شعوري، فأغلب الأفعال التي يمارسها الإنسان حتى تفكيره، سلوكه، عاداته وتقاليدِه موجودة ضمن أنساق محددة يمارسها الإنسان ويجعل مواردها فانفتاح النسق على مكون الثقافة/اللغة يؤسس نظاما من العلاقات المرجعية الخاصة والاحتمالات الإشارية اللانهائية حيث تضحى العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتبارية لا حدّ لها"، فالإنسان أثناء ممارسته لحياته الاجتماعية يستحضر بممارساته وتفاعلاته مع الآخرين أنساقا علنية تضرّم هي الأخرى أنساقا مخفية تكون متضادة مع نظيرتها العلنية، يرصدها الإنسان في مجتمعه ويعيد هو الآخر تشكيلها بفعل اللغة ليولد منها أنساقا أخرى قادرة على استيعاب تصوّره ورؤيته للعالم يعكسها هذا الأخير بوساطة اللغة في أفعاله وسلوكاته وكتاباتِه وبالتالي ستؤثر حتما في القراء والمستمعين فالنسق الثقافي ذو طبيعة مضمرة ودلالته ليست مصنوعة من مؤلّف ولكنها منسوبة ومنغرسَة في الخطاب، مؤلّفها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء ... والنسق هنا ذو طبيعة سردية، يتحرك في حبكة متقنة ولذا فهو خفي ومضمّر وقادر على الاختفاء دائما، ويستخدم أّقنعة كثيرة، وأهمها قناع الجمالية اللغوية، وعبر جماليتها تمرّ الأنساق آمنة مطمئنة من تحت المظلة الوارفة، هذا العالم يجسد بناء ثقافيا معقدا يتموقع وفق تشكيل خيالي في بنية اللغة على هيئة أنساق ثقافية مضمرة مولدة لدلالات تؤثر في عقلية الإنسان» فالنسق يمارس فاعليته في بنية النص بوصفه نظاما علنانيا فوقيا متعاليا محملا بمرجعيات ثقافية وأيد جيولوجية وأطر معرفية جمعية، لذا فإن النظرية الثقافية تبلغ أقصى دلالتها حين تكون معنية على وجه الدقة بالعلاقات بين الأنشطة الإنسانية الكثيرة والمتنوعة، التي قسمت تاريخيا ونظريا إلى جماعات على هذا النحو خاصة حين تتفحص هذه العلاقات من حيث هي دينامية محددة داخل مواقف تاريخية شاملة يمكن وصفها»، هذه العلاقات هي المشكلة للأنساق الثقافية الحاملة للوعي في شكل شفرات مضمرة.

يحدّد الغدّامي مميزات وسمات للنسق الثقافي قائلا: «يتحدّد النسق عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب، أحدهما ظاهر والآخر مضمّر، ويكون المضمّر ناقضا وناسخا للظاهر، ويكون ذلك في نص واحد، أو في ما هو في حكم النص الواحد، ويشترط في النص أن يكون جماهيريا»، فكل نص أو كلام نتلفظه أو صورة نشاهدها أو خطابا نقرأه إلا ويحمل نسقا مضمّرا معاكسا وناسخا للظاهر المكشوف، أما النصوص فيشترط أن تكون جماهيرية موجهة للعامة وليست للنخبة فقط والوسيلة الفعالة لكشف زيف هذه الأنساق المضمرة هو النقد الثقافي" هذا النقد يتجه إلى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خفية... وهذا لا يتم إلا عبر ملاحقة الأنساق المضمرة ورفع الأغطية عنها"، لذلك نجد أن رومان جاكسون يقول "إذا أرادت الدراسات الأدبية أن تصبح علما يتعين عليها أن تركز على دراسة النسق فقط"، فالتركيز على دراسة الأنساق باختلافها هو المحور الرئيس للدراسات الأدبية.

3_ مفهوم النسق

أ. لغة:

وردت لفظة "نَسَقُ" في معجم "لسان العرب" بمعنى: "النَّسَقُ من كل شيء: ما كان على طريقة نظام واحد، عام في الأشياء، وقد نَسَقْتُهُ تنسيقاً... والتنسيق: التنظيم، والنسقُ ما جاء من الكلام على نظام واحد، يتبين من خلال هذا القول أن مفهوم "النسق" في معجم "لسان العرب" حمل معنى النظام، والتنظيم. أما في معجم "الوسيط" فنجد "نَسَقَ الشيء، نَسَقًا: نظمته، يقال: نَسَقَ الدرّ، ونَسَقَ كتبه، والكلام عَطَفَ بعضه على بعض.... والنسق: ما كان على نظام واحد من كل شيء."

من خلال هذين المفهومين اللغويين لمادة) ن. س. ق. (نلاحظ أنهما اشتركا في المعنى نفسه، فالنسق يعني التنظيم، وتتابع الشيء على نظام واحد، أما مفهوم "النسق" في اللغات الأجنبية كاللغة اليونانية مثلا حملت هي الأخرى معنى التنظيم، والتركيب، والمجموع ومن ثم تحيلُ هذه الكلمة على النظام، والكلية، والتنسيق والتنظيم، وربط العلاقات التفاعلية بين البنيات والعناصر والأجزاء ومن ثم فالنسق عبارة عن نظام بنيوي عضوي كلي جامع.

ب. اصطلاحاً

يعتبر مصطلح "النسق" أساس ومركز الدراسات النقدية الثقافية في تحليل الخطابات والنصوص فمن خلاله يمكن للباحث المهتم بهذا النوع من الدراسات أن يستشف المعنى المخبوء تحت الألفاظ الجمالية والبلاغية، لقد استخدم مصطلح "النسق" في مجالات وتخصصات متعددة مما جعل دلالاته غير محددة في بداياته "يجري استخدام كلمة" النسق "كثيراً في الخطاب العام والخاص، وتشيع في الكتابات إلى درجة قد تشوه دلالتها".

لقد سطع نجم مصطلح "النسق" في مجال الدراسات النقدية فكان حاملاً لمفاهيم متعددة إلى أن ظهر "النقد الثقافي" في الساحة النقدية فقدم له مفهوماً دقيقاً.

إن بدايات ظهور مصطلح "النسق" ظهر مع اللساني الفرنسي "فرديناند دوسوسير F. De Saussure" في مجال الدراسات اللسانية؛ حيث استعمل "النسق" في مفهومه "لغة قائل": اللغة عبارة عن نسق من العلامات يعبر عن الأفكار، ولهذا فهي مشابهة لنسق الكتابة وأبجدية الصم والشعائر الرمزية وصيغ المجاملة والإشارات العسكرية... ولكنها أعظم أهمية من هذه الأنساق"، فيجعل "دي سوسير" للغة أهمية كبيرة أكثر من النسق، فالنسق بالنسبة إليه هو المنظم للعلامات فاللغة عنده أعم من النسق ومع هذا فقد ربط بين المفهومين (اللغة/النسق).

أما "البنويون" فقد ربطوا مفهوم "النسق" بمفهوم "البنية" "وإذا كان سوسير هو أول من جاء بفكرة النسق وأول من توصل إلى مفهوم النظم الذي يمثل تلك العلاقات القائمة بين الوحدات اللغوية المختلفة كما استخدم أيضاً مصطلح النظام (System)، أما الذين جاؤوا بعده فأطلقوا عليه مصطلح البنية لأنهم وجدوا أن الجمع والتأليف بين الوحدات اللغوية شبيهة بفعل "البناء"، فالبنويون رادفوا بين المصطلحين) النسق البنية) زاعمين أن الدور الذي يقوم به النسق والمتمثل في الجمع والتنظيم بين الوحدات اللغوية هو نفسه الذي تقوم به البنية.

أما "نعمان بوقرة" فقد استحضّر المصطلحين في تقديمه لمفهوم "النسق" قائلا: "هو ما يتولد عن تدرج الجزئيات في سياق ما أو ما يتولد عن حركة العلاقة بين العناصر المكونة للبنية، إلا أن لهذه الحركة نظاماً معيناً يمكن ملاحظته وكشفه"، فنلاحظ أنه قدم مفهوماً قريباً من مفهوم البنيويين للنسق فقدم شابه بينه وبين البنية في عملية تتابع الأجزاء الصغرى للكلمات إضافة إلى العلاقة الموجودة بين العناصر التي تكوّن البنية كذلك في الخضوع لنظام معين.

من خلال هذه المفاهيم المتعددة لمصطلح "النسق" نلاحظ تكرار ثلاث مصطلحات أساسية ورئيسة في مجال اللسانيات وتحليل الخطاب والنقد ألا وهي) النسق البنية النظام، وعلى الرغم من الاختلاف اللغوي لهذه المصطلحات إلا أنها تحمل في طياتها مدلولاً متقارباً.

_14_النسق الديني:

يُعتبر الدين من الأمور التي يشارك فيها البشر كلٌّ حسب مذهبه مع اختلاف الإيديولوجيات، ما يُترجم وجود تعدد لديانات والعقائد والمقدسات، إذ يُعد الدين من الضوابط التي تُنظم حياة الجماعات والأفراد في كل ما تقتضيه الأطر الاجتماعية والأخلاقية التي يمر بها كل مجتمع.

أما بالنسبة للنسق الديني في الرواية الجزائرية فقد صاحب حضوره مرحلة السبعينيات أين شهد العمل الروائي تطوراً ونُضجاً على مستوى البنية الفنيّة ومرد ذلك ومرجعه» إلى الحرية التي اكتسبها الكاتب بفعل الواقع السياسي الجديد، وبالتالي فإنّ مشاهد الثورة التي عايشها أغلب الروائيين بقيت راسخة في أذهانهم مما أثر على أقلامهم الروائية التي سخروها للحديث عنها» من باب الحنين فالاستحضار فالوصف، فروايات "المؤامرة" لمحمد مصاييف و"البزاة" لمرزاق بقطاش و"هموم الزمن الفلائي" لـ"محمد مفلح" نجدها لا تتعدى الوصف، وحضور النسق الديني في هذه الروايات وغيرها كان يُغلفه البعد الثوري فلا تكاد تشعر بثقل الخطاب الديني في تحريره للوعي وتوجيهه نحو خُلق المبادرة الفاعلة في مسار النضال الثوري.»

بعد مرحلة السبعينيات عرفت الجزائر وضعاً سياسياً آخر تمثل في الاشتراكية التي سادت حياة الناس وعيشتهم، لكن سرعان ما تحوّلت من المعنى الإيجابي إلى المعنى السلبي وبقيت حبراً على ورق، فظهر التهميش والتمييز والمحاباة وظل النسق الديني في هذه المدة مرافقاً لأغلب الأعمال الروائية، إلا أن توظيفه كان من خلال استحضار شخصيات دينية تأرجحت بين الإيجابية والسلبية، فشخصية "علي" في رواية "الحوات والقصر" للطاهر وطار تتجاوز حدود الزمان والمكان لتترقى إلى مصاف الأنبياء، أين تتناص الرواية في أغلب محطاتها مع قصة سيدنا يوسف، ونجد كذلك شخصية "الجازية" في رواية "الجازية والدرأويش" لابن هدوقة التي لم تكن امرأة عادية وإنما أسطورية تُمثل الثقافة العربية الإسلامية وفي المقابل هناك روايات استحضرت في مضمونها شخصيات دينية مصبوغة بالطابع السلبي كما في رواية "العشق والموت في زمن الحراشي" للطاهر وطار، وهنا نشهد حضوراً للإيديولوجيا الاشتراكية، وقد تزعم هذه المجموعة الفتاة "جميلة" وهناك فئة ثانية تمثل الإيديولوجية المضادة التي تتبنى مبادئ الدين الإسلامي يتزعمها "مصطفى" الذي وصف بالانتهازية والعدوانية، ورواية "زمن النمرود" للحبيب السايح أين "يُغرق الاتجاه الديني المتمثل في شخص عوج الفم في عالم أخلاقي يُعارض عالماً غير أخلاقي في نظره يُمثله الرأسماليين والاشتراكيين على حدّ سواء"، وبالتالي فإن الشخصية

الدينية في هاتين الروايتين حاضرة ولكن منظور إليها نظرة سلبية بكونها شخصية متخلفة، متحجرة، إقطاعية، إرهابية، عنيفة.

إذا جئنا إلى مرحلة التسعينيات فهي مرحلة سوداء في تاريخ الجزائر على اعتبار أنها عاشت ما يُسمى بالإرهاب الذي حرم الجزائريين لذة الحياة وامتعة العيش وأدخلهم في نفق مظلم، وبالتالي فإن هذه الوقائع الدموية كانت لصيقة بالتيار الإسلامي، الأمر الذي نتج عنه اقتران الخطاب الديني بالفهم الذي أشاعه خطاب الحركات الإسلامية، ومن الروايات التي صاحبت هذه المدة رواية "تيميمون" لرشيد بوجدره والمراسيم والجنائز "البشير مقي و"الغيث" لمحمد ساري، و"سيدة المقام" لواسيني الأعرج، والملفت للانتباه في هذه الروايات أن الظاهرة الإرهابية تحضر بوصفها جزءاً من حركية المجتمع تعيقه وتشدّه إلى الخلف.

5_ترجمة إسماعيل يبرير:

إسماعيل يبرير كاتب، روائي، شاعر، وأستاذ جامعي جزائري، خريج المدرسة الوطنية العليا للصحافة وعلوم الإعلام، بالجزائر العاصمة، ولد بالجلفة، سنة 1979 م، يعمل كمحرر للشؤون الثقافية في وكالة الأنباء الجزائرية.

له مجموعة من الإصدارات الأدبية) روايات، مجموعات شعرية، نصوص مسرحية وكتب جماعية)، نذكر منها: ملائكة لافران (2008 م) رواية، (بادرة كأنثى 2013 م) رواية، (وصية معتوه ... كتاب الموتى ضد الأحياء 2013 م) رواية، (مولى الحيرة 2016 م) رواية، (منبوذو العصفير 2019 م) رواية، (طقوس أولى 2008 م) شعر، (التمريرين أو ما يفعله الشاعر عادة 2008 م) شعر، (أسلي غربي بدفء الرخام 2019 م) شعر.

6_النسق الديني في روايات إسماعيل يبرير

أ_التناص مع القرآن:

الخطاب الروائي في روايات إسماعيل يبرير والذي يتعامل مع الموروث والتراث الديني الذي كان حاضرا بقوة، وذلك من خلال كون رواياته) وصية معتوه، مولى الحيرة، بادرة كأنثى (والتي لم تخرج عن الديني المتعارف عليه في الموروث.

استحضر إسماعيل يبرير قصة أهل الكهف في روايته وصية معتوه، تعبيرا عن واقع مثير يعاني منه الأب تذكر الوصية، لكنه لم يحافظ على قبر الجد من الضياع بقوله: "كرر الشيخ الماحي السؤال فاضطر أبي إلى القذف بخطوات إلى اليمين ثم إلى الشمال.

وهذا تماشيا مع قوله تعالى ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ سورة

الكهف/الآية 13.

يهدف إسماعيل يبرير من خلال توظيفه للنص القرآني الإشارة إلى الصورة المعبرة عن أخذ جنمان الجد إلى المقبرة الظاهرة لهم كأنها الجبل الذي يبدو للمتسلق له أكثر وضوحاً وكبراً مما جعل الأب يفقد الذاكرة ولا يتذكر القبر الموصي عليه من طرف الجد الميت وكأنه يسير في سهل بعيد بقذفه بخطوات إلى اليمين ثم إلى الشمال وهذا اقتباساً من قصة أصحاب أهل الكهف.

ويستلهم الكاتب قصة السيدة العذراء، في قوله " ولعل جدي أصبح نسيا منسيا منذ دفن " يستدعي قوله تعالى ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ سورة مريم/الآية 23.

ويوظفه في نص الرواية، ولكنه لا يكتفي بنص الآية، بل يضيف دلالة جديدة بما يتناسب والواقع الذي يرسمه، فالنص القرآني قائم على مخاطبة مريم فاضطرها طلق الحمل إلى جذع النخلة فقالت يا ليتني مت قبل هذا اليوم وكنت شيئا لا يعرف، ولا يذكر، ولا يدري من أنا، أما في نص الرواية يتحدث عن سرعة نسيان أهل الميت لميتهم الجد وفي الأمل والغفلة، أي أغلى الناس وأغرهم ما عساهم أن يفعلوا؟ سوى قطرات من الدموع حراقة، ستبرد مع مرور الأيام ويأخذون في شرائهم وبيعهم كأنهم لم يكونوا منه ولم يكن منهم وهذه حقيقة قابلة لاستمرار الحياة.

كما نجد أن الروائي أدرج قصة سيدنا نوح عليه السلام في قوله: "وطوفان يأتي على المدينة في كل عام ليأخذ القرايين، من أطفال وخرفان وفقراء، ولا أذكر أن وادي ملاح أخذ أحدا من وجهاء القوم"، وهذا تناص من الآية القرآنية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾

العنكبوت/الآية 14

ب_ رموز التصوف:

يحضر المعجم الصوفي في رواية " مولى الحيرة " من خلال التركيز على بعض المفاهيم الصوفية المتداولة، بيد أن المفهوم الصوفي يحضر في الإبداع الجديد بصورة مخالفة للدلالة التقليدية- الدينية، والمفاهيم الصوفية تحضر بحمولة دلالية وجمالية جديدتين تحتفظ بعمق الرؤية الصوفية وتفتح على الدلالة المعاصرة، ومن الكلمات المتواترة الحضور في الرواية نجد الحب، الحيرة، العشق، الرؤية، الكشف، الحلول، الباطن، السالك، الزهد...

تظهر عتبة عنوان رواية " مولى الحيرة " القيمة الإيجابية لمقام الحيرة كونها تضعنا أمام نوع من النقد الذاتي الداخلي؛ الذي يمارسه الصوفي على تجربته الخاصة، وعلاقته المعرفية بالوجود، إنها نوع من انعكاس التجربة على ذاتها عبر توترها الخاص، إن وعيها بذاتها وعي متكسر يستنطق ذاته باستمرار ويكشف عن توتراته الداخلية... ونجد تواتر كلمة الحيرة" تتوزع في المتن الروائي أكثر من عشرين مرة يتقاسمها البطل مع شخصيات الرواية بمعنى التيه والضيق، والانكسارات الداخلية جراء تجاربه وال فشل المشترك بينهم حتى صار البطل أمير الحيرة وملكها" كان واقفا يرمي الحيرة والديه"، " وهو وحيد في متاهة الحيرة"، وصارت الحيرة عالما"، " ولا عاد يخيفه جيش الحيرة"، " تصبح الحيرة مملكته"، " وملامحه مليئة بالدهشة والحيرة".

نجد أن لفظة الحيرة تحمل دلالات ورموز تصاعدية لدى البطل من خلال تجاربه ورؤاه التي اتسمت - عبر مسارات الرواية - بالفشل والضيق والزقية، مما ولد لديه حالة نفسية بمركبات اجتماعية وسياسية واقتصادية وحتى ايدولوجية رغم محاولة البطل البحث عن حلول لواقعه المعيش عبر تساؤلات فلسفية وجودية... إلا أن أذيال الخيبة تلاحقه فلا يجد متنفسا إلا بالعودة إلى حنين الحب بينه وبين المحبوبة، أو

حديث الشيخ الأبييض الرائي، أو السماع عن شخصيات القراة التي قاسمته الفشل مما حدا به أن يتخذ العزلة والانزواء عن العالم السوادوي كتجربة خلاص باختيار الزهد والتصوف مذهبا له وعالما خاصا به. كما نجد أيضا متوازيات نصية أخرى داخل نصوص بيرير، حين يوظف الكاتب عناوين فرعية يصدر بها كثيرا من أجزاء رواية "مولى الحيرة" (مثل مصطلحات) تحرير، الفصل، الغياب، قبب، العرفان، أرض الناجي، بلاغات، (...)، وغيرها من المسميات الصوفية التي جعلت النص بمثابة بنية لغوية صوفية تتناص مع بنيات الكتابة الصوفية وصيغها وتمثل حقيقة التصوف في جانب نفسي تركيبي يقع في أعماق النفس البشرية، ربما يصح أن تطلق عليه استعداداً فطرياً أو غريزياً، يتلخص بأنه الإخلاص لفكرة وليس شرطاً أن تكون دينية وما هو عند الناس وسيلة وغاية، يصبح عنده غاية فقط والممارسات والأفعال تؤدي لذاتها، هذا الاستعداد الفطري يحتاج أن يوظف وقد تتم اليقظة عن طريق صدمة ما، من هنا صح أن يوصف أي مخلص لفكرة ما بأنه متصوف في محرابها قد يكون شاعراً عالماً، موظفاً.. فالإخلاص قيمة وجدانية تفيد ارتباط أشياء الوجود من دون دوافع مادية"، فتكشف الحيرة الصوفية عن سراب الذات ورد فعل الإحساس بتملك اليقين المعرفي "...والحيرة تصنع فراغ الذات تجاه الحقيقة، لكنها لا تلبث أن تفتزع من هذا الفراغ للبحث عن بديل عن مفهوم جديد لممارسة الحكمة الصوفية وهو الحب؛ فإن الحب يرقى بالصوفي نحو عتبة يؤسس فيها علاقة جديدة بالوجود والحقيقة الإلهية أهم عناصرها الاغتراب والعشق.

ج_ نسق الأماكن المقدسة:

تنظر المجتمعات العربية للأماكن المقدسة نظرة إجلال وتعظيم لشأنها ومكانتها، فهي أماكن يحرم المساس بقديسيها، حيث تهذب فيها النفوس وتمنح من منابرها النصائح والعظات الروحية التي تفيد في استقامة الظروف الحياتية، حتى تقوي الجانب الإيماني (الديني) في المجتمع، وتتصدر المساجد طليعة الأماكن المقدسة في المقام الأول.

وعليه تلعب المساجد دوراً فعالاً في ترقية المجتمع والنهوض به في جميع الأصعدة ومحاولة الارتقاء بالفرد ارتقاء بالمجتمع من خلال زرع القيم الفاضلة في نفوس الناشئ، كما تعمل الخطب المسجدية على تقويم السلوكيات النفسية والاجتماعية للأفراد من خلال الترغيب في تنمية عادات سلوكية والتنبية على الخوض في عادات فكرية وسلوكية أخرى، وبالتالي يمكن أن يؤدي ذلك إلى تحقيق تضامن المجتمع وتماسكه وتوافقه واندماجه بين كافة مكوناته وأطيافه الاجتماعية من أجل تقليل حالة الاحتقان الاجتماعي والسياسي بين أفراد المجتمع، وتمثل تلك الإجراءات الاستباقية دعامة للثوابت الاجتماعية في بنية المجتمع من جهة وتكريس روح الوحدة الوطنية من جهة أخرى وهو جدار متين ضد مختلف أزمات المجتمع الجزائري.

ومنه أصبح المسجد منبرا للعبادة ولذكر الله تعالى، ومع دوام الفرد المسلم لتلك السلوكيات الخلافة تغيرت البعض من سلوكياته وأخذت منحاً تصاعدياً من حيث تهذيب نفسيته وإقدامه على أفعال ساهمت في تقديم الإضافة للمجتمع الجزائري.

يوظف المسجد في النصوص السردية على أنه ذات تأثير إيجابي في توجيه السلوك وتهذيبه، فالمسجد هنا مكان للعبادة والصلاة وملاذ كل شخص يطلب الراحة والسكينة والعلم، ويكتسي المسجد في رواية "مولى

الحيرة "أهمية وتظهر من خلال وصف السارد لبشير الديلي واجتهاده في حياته من الصغر ونجد ذلك يكمن في مقطع من مقاطع الرواية" كلن يقرأ مثل رفاقه، أفضل بقليل من الزين "الجاهل" وأقل من ناصر" الفيلسوف الشيوخي "وعبد الحميد" المنظر" كان هذا في سنوات الصبا الآلفة، هكذا كانت الحياة فكيف انسحب الشباب من الزوايا ... الشيوخ يخرجون من المسجد بخطى مطمئنة، وقد انتشر الإيمان بين بعض الشباب الملتحين والحليقين"، فهنا المسجد يدل على المكان الذي يلجأ إليه الإنسان للتقرب من الله تعالى وعبادته، وهو ملجأ الاطمئنان والراحة النفسية.

نجد السارد أشار إلى المسجد الوحيد الموجود بحي القراية، والذي أخرجهم من كهوفهم ليبنوا حوله بيوتا وأكواخا، ففي القراية لا يوجد إلا مسجدا واحد واعتقدوا أن قداسته تمتد من يوم بني، ويتضح لنا في الرواية كالتالي "القراية هي النواة الأولى للمدينة، عبد الحميد يقول إنه حي تأسس على مسجد، ويعتقد أن قداسته تمتد من يوم بني المسجد، فهو مخرج الناس من كهوفهم ليبنوا حوله بيوتا وأكواخا"، فنجد عبد الحميد لم يعارض في هذا مثله مثل ناصر وزين العابدين فإنهم متطرفون في انتمائهم، لهذا فلا غرابة أن يعتقد بعضهم وهما لا أثر له ومن هنا بدأت حكايات الجلفة القديمة.

ونجد كذلك أن المسجد مكان لطلب الراحة والسكينة والاطمئنان والتواضع، فكان بشير الديلي يتأمل من المقهى عليه وينظر إليه بجل بصره ولم يكن ذوقه الفني جيدا وليس متوسطا، بل كان متواضعا جدا ونجد ذلك في الرواية: "جال ببصره في المقهى، فلم يكن ذوقه الفني جيدا وليس متوسطا كان متواضعا جدا، قرأ تلك اللوحة التي توسطت أحد الجدران، مرة أخرى أبيات الشافعي الشهيرة التي تعلق العبادات والمقاهي ومكاتب المحاسبة

والمساجد، كانت المعاني جميلة"، ومن خلال هذا نجد بشير الديلي وجد هذه الأبيات ركيكة، ولم ترقه فلو أنها نثر لكان وقعها أفضل، طبعا احتفظ بها بانطباعه، وداخله ما يشبه الاعتذار، لم يكن يدعي أنه أشعر من الشافعي.

د_ النسق الديني في رواية "منبوذو العصافير"

جاء في رواية منبوذو العصافير بعض التظاهرات الدينية، التي تجلت في عبارات ومشاهد تضم دلالات ورؤى مستمدة من النصوص المقدسة، ونذكرها في الآتي:

"كان عليه أن يشهر إسلامه ليتزوجها، ورغم فارق السن بينهما"..." أسلم مارك الجد في مسجد الحي الأول في المدينة، وأقيم له احتفال ترحيبي، كان سعيدا بكل تلك الابتسامات التي تلقاها..." "وحين تزوج خديجة الترم الصلاة وصار يعتمر عمامة في بعض الوقت"، وأيضا" خلال سنوات قليلة تحول إلى رجل من القوم يحمل عصا، ويلف يديه خلف ظهره متجها صوب المسجد"، يُظهر الكاتب من خلال هذين المقطعين التزام بعض شخصيات هذه الرواية بالدين الإسلامي، حيث كان لزاما على مارك الألماني أن يشهر إسلامه ليتزوج من خديجة، وليس ذلك فقط بل اتسع الأمر لتبنيه الفرائض والطقوس الدينية بشكل واضح من خلال عون محيطه الجديد له بالاندماج في ذلك.

بدا الولهي "إماما في بعض الوقت، يؤم الشيوخ في مسجد باب العين، ومعلم قرآن يقرأ الكتب والكتبات، وانتهى عاشقا سريرا"، يظهر من خلال هذا المقطع أن الدين الإسلامي جزء متصل في أفراد وشخصيات الرواية، حتى وان كان طقوسا من خلال ما يمثله الولهي تجسيديا.

إضافة إلى ذلك، نجد حضورا للطقوس الصوفية، لكنّها محرفة بشكل واضح عن مقاصدها الصحيحة،

كما هو موضّح من خلال قول الروائي الآتي:

"يا لخضر أظنه مريض أو مهموما!

-لا اعتقد ربما شعر أن مجلسه لم يعد مجديا برجمين فقط؟

-هذا محرج له ولنا، علينا أن نجد من يصغي له

-من الشباب؟

-لا أظنهم يهتمون لأمره، بعضهم فقط إذا اصطاد عصفورا فيحصل على مقابل

-من الشيوخ الذين انفرطت مسبحتهم ولم يعد بها إلا ثلة ترتاد المسجد؟"

بيّن هذا المقطع بدوره كيف يجمع رجل الدين بين لقب الشّي وكثير من التصرفات التي لا تليق بهذا اللقب؟ ويصور لنا الكاتب بذلك الصور المختلفة للجانب الديني، التي يمثّلها أفراد المجتمع على اختلافه، فمنهم يتبنّى الدين فعلا وقولا وان كان بسيطا، ومنهم من يتبناه بالورثة، وثالث يعدّه طقسا اجتماعيا وكفى، ومن هذه الأمثلة نجد بعض شيوخ القرية الذين يحرصون على القرآن الكريم وتربية الناشئة عليه، ويريدون الإمام أن يمثّل تلك المكانة بصدق، ويظهر ذلك في المقطع الآتي "حين حضر بعض من شيوخ القرية يحثونه على ضرورة العودة إلى تدريس الأطفال في الكتّاب، كان قد قرر أن يترك التعليم، ويفتش عن مجد كبير يمنحه سعدية وبعض الوقار الذي يهش به المتربصين."

يقول الكاتب "لا أحد من أهل البلدة يعرف سبب اعتقال محسن في هذه السن، لقد كان رجلا محترما على الدوام، ولم يسمع صوته منذ سنوات، ليس لديه إلا مشوار واحد بين الكافي والمسجد"، يظهر الكاتب في هذا المقطع أن الرجل الملتزم بدينه له قدسيته في المجتمع، حيث لا يتوقع منه أن يقوم بأفعال مشينة خاصة إن كان من مرتدي المساجد، وهي النظرة الثانية تؤكد قدسية الدين التي يظهرها الكاتب عند شخصيات مجتمعه.

خاتمة:

من خلال قراءتنا لمنجز أحد الأعلام المبدعة في الأدب الجزائري، خلصنا إلى مجموعة من النتائج:
-إنّ توظيف الدّسق الديني لا يقوم على تقديم أنموذج مماثل أو مشابه لما هو مقدّس، وإنّما لتقديم تصوّر حضاري مرتبط بسياق فكري معين، وتشكّل تلك الأنساق الدينية سلسلة معطيات وطقوس ومناسك ومظاهر للفكرة الدينية، فالدين يفرض وجوده في الدّاكرة الجماعية للمجتمع الجزائري، إنه القوّة التي لها بالفعل وجود موازي لوجود البشر في هذه الحياة.

-لقد تجلّى النّسق الدّيني من خلال القراءة في المنجز الروائي لإسماعيل يبرير في مجموعة من التّمظهرات المتنوعة كالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وأيضاً الأماكن المقدّسة "المسجد"، كما لا ننسى الحضور الصوفي برمزياته المتعدّدة في روايات يبرير.

-لقد جاء النّسق الديني بشكل متفاوت ومتباين بين روايات إسماعيل يبرير فبينما نراه جاء بشكل مكثّف في روايتي "مولى الحيرة" و"وصية معتوه" ونشهد العكس تماماً في "رواية منبوزو" "العصافير، حيث يقلّ حضوره فيها.